

عندما طعن عبد الحميد الثاني مصر في ظهرها!



"السلطان هو أمير المؤمنين وخليفة المسلمين"

هذا ما نص عليه الدستور العثماني الصادر في عام 1876م والذي على أساسه صار السلطان عبد الحميد الثاني جامعاً بين السلطين المدنية والدينية..

القارئ في التاريخ الإسلامي ونظراً للحكم الإسلامية يمكنه بسهولة أن يعرف أن "ولي الأُم" سواء كان أميراً أو ملكاً أو سلطاناً من ناحية أو كان يتخذ منصب "الإمامة العظمى" المعروف بـ"الخلافة" من ناحية أخرى، يقع على عاتقه "حماية بلاد المسلمين" من الأعداء... وهذا وفقاً للقواعد الشرعية لمنصب الخلافة.. ويمكن للقارئ مراجعة ذلك في كتابا

"الأحكام السلطانية والولايات الدينية" للفقيه العباسي أبو الحسن الماوردي أو في تعريف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون لمنصب الخلافة في مقدمة كتابه "العين وديوان المبتدأ والخبر". بناء على ذلك فإن أي تقصير أو إهمال أو تقاوت من هذا "الخليفة" في حق واجبه سالف الذكر هو من قبيل "خيانة الأمانة"، فما بالنا بامرتكابه عملاً يعد دعماً معنوياً للمعندي الأجنبي.

هذا ما كان من عبد الحميد الثاني في حق مصر!

عرايبي وعبد الحميد:

بينما كان عبد الحميد يفتح عهداً بنسليمه جزيرة قبرص للبريطانيين كان ضابط الجيش المصري أحمد عرايبي يناضل لحماية حقوقه وحقوق زملائه الضباط والجنود المصريين أمام اختياز السلطة الحاكمة لعنصري الترك والجر كس وتمييزها بالترقيات والتعيين في المناصب القيادية مقابل اضطهاد وتجنيد للعنصر المصري الذي يقوم على أكتافه جيش مصر..

بدأ هذا النضال في عهد الخديوي إسماعيل، وبالتوازي معه نضال آخر ضد التدخل الأجنبي في شؤون مصر بذريعة سوء السياسة المالية للخديوي الذي أوقع البلاد في الديون، فسضت عليه القوى الأوروبية من اقبين فرنسي وإجليزي، مراحا ينصكمان في السياسة المصرية حتى إذا ما حاول إسماعيل إطا حنهما لمنع هذا التدخل السافر ضغطت دولناها على السلطان العثماني فأصدر فر ماناً بعزل إسماعيل وتعيين ابنه توفيق حاكماً على مصر..

وبعكس أيها، كان توفيق منصالحاً تماماً مع فكرة الخضوع للدخول خارجي طالما أن ذلك تحفظ له كرسيه ولقبه، وبدا واضحاً أن انضمام مصر للأقطار المنسوبة من الحكم العثماني إلى الاحتلال الأوروبي قد صار مسألة وقت لا أكثر..

تصاعدت حدة الصدام بين عرابي والسراي في عهد توفيق، وكان عبد الحميد الثاني على علم بنشاط عرابي الذي لم يدخر وسعاً في طمأنة الباب العالي أن مناداته بالوطنية المصرية لا ترمي لفصل مصر عن "الخلافة العثمانية.."

كان سبب موقف عرابي هو من ناحية نشأته الدينية الريفية المحافظة، والتي تقود بطبيعة الحال لاحترام "مقام الخلافة"، ومن ناحية أخرى كان يدرك أن العرش العثماني تعصف به دعاوى القوميات والوطنيات الرامية للنخلص من حكمه سواء في المستعمرات العثمانية في أوروبا (الروملي) أو في بلاد الشام ومصر، فكان يرمي إلى طمأنة السلطان إلى أن حركته ليست واحدة من تلك الدعاوى.. هل كان ذلك إيماناً حقيقياً منه بفكرة "الخلافة العثمانية" و"الجامعة الإسلامية" أم كان لا يرغب في فتح جبهة صراع مع العثمانيين إضافة إلى الجهات المنوطة بالفعل ضد الخديوي توفيق والطمع الاستعماري الأجنبي ومؤامرات العنصرين التركي والجرماني؟ لا أستطيع الجزم بالإجابة ولكن الواقع التاريخي يقول إن عرابي حرص على الحفاظ على علاقة طيبة بالباب العالي...

في المقابل كان الخديوي توفيق متأماً من الطراز الأول، فكان يرغب في أن يضيق الخناق على عرابي من خلال إيهام السلطة العثمانية بأن هذا الضابط العنيد هو عدو للحكم العثماني وليس لحكم توفيق وحده..

عبد الحميد الثاني يدعو لغزو مصر:

الاضطرابات في مصر أو ما عُرِفَ باسم "المسألة المصرية" صارت موضع جدل من القوى الأوروبية التي كانت كل منها تحشى أفراد الأخرى بـ "غنيمة مصر" كجزء من النطع لتقاسم "عادل ومرض" للتركة العثمانية.. وبلغ الهوان بالعثمانيين وسلطانهم أن عقد الأوروبيون مؤتمراً لتقاسم الدخول والغزو في اسطنبول المنصوص في ديسمبر 1876 على أنها "عاصمة الخلافة!"

وسراح عبد الحميد العاجز ينظر إلى مندوبي إنجلترا وفرنسا ودول أوروبا وهم يناقشون علنا حول من له حق الدخول في مصر التي كانت آنذاك "ولاية عثمانية".. ولله هشة فإن عبد الحميد قد رفض مقترحاً بأن يرسل القوات العثمانية إلى مصر لفرض الانضباط على الأطراف المتصارعة وتمكين الخديوي توفيق من إقامة حكم مستقر فيها.. بل دعا إنجلترا إلى أن تقوم هي لهذا الدور من خلال تفويضها إدارة مصر أسوة بخزيرة قبرص!

دعوة صريحة للغزو من رجل يُفَسِّحُ أنه "أمير المؤمنين" و"سلطان الدولة العثمانية" و"حامي حمى البلاد"! وحنى تبريرها بأنها "مناورة للوقعة بين المتنافسين الأوروبيين على غزو مصر" لا يكفي لنفي صفة الخيانة العظمى عن هذا الفعل المنكر..

وترفض إنجلترا الطلب احتراماً لما يوصف بـ"بروتوكول النزاهة" بين الدول الأوروبية ألا تلعب إحداها من وراء ظهر الأخرى..

أخيراً استفسر الأمر على أن تتدخل الدولة العثمانية بقواتها في مصر ولكن بشكل لا يمثل "احتمالاً طويلاً الأمد" بل بقدر ما يكفل للخديوي توفيق أن يقيم حكومة مستقرة لا تعاني مضايقات "الفئة العسكرية".

بد الحميد الثاني، الرمز الذي يشجع العثمانيون الجدد أنه كان صخرة صلبة في وجه المستعمرين، تحتاج إلى مؤتمن دولي مفروض عليه ليقرر إرسال قوات إلى ولاية في دولته!
ولا تقف المهزلة عند ذلك كما سنرى.

- خيانة عثمانية في زمن الحرب:

بينما كان عبد الحميد يمارس الانبطاح في عاصمته أمام الطامعين في ولايات دولته، كانت إنجلترا تكمل مؤامرها الاستعمارية ضد مصر بالتعاون مع الخديوي الخائن توفيق. فتبذل المؤتمن المدكور، قام عملاء الخطة الإنجليزية بنزوح السلاح على الأوروبيين المقيمين بالإسكندرية، ونسقوا مع الخديوي الذي أرسل أوامر لمحافظ الإسكندرية عمس لطفي. وفي "ساعة الصف" اندلعت مشاجرة بين رجل مالطي وحمّار (مكاري) مصري على أجرة نقل هذا الأخير للمالطي، فما كان من المالطي إلا أن طعنه بسكين، ولما حاول المصريون القبض عليه فوجئوا بوابل من النيران ينطلق نحوهم من أسلحة الأوروبيين عبر النوافذ، فتأثرت دائرة "أولاد البلد" وتحولت المشاجرة إلى مقتلة بشعة بين الطرفين الأجنبي والمصري.

خلال ذلك راح المحافظ عم لطفى يترك في الدخول مفسحاً المجال لاستمرار تلك المقتلة التي ستكون مبرراً للدخول الإنجليزي الصريح.

أثناء ذلك كانت البوارج البريطانية والفرنسية تتقدم من الإسكندرية فيما يوصف بـ"المظاهرة العسكرية" بغرض إرهاب عرابي والثائرين ضد الخديوي توفيق.

وانتقل الخديوي الخائن إلى الإسكندرية ليكون في حماية الأسطول البريطاني، بينما أحس الفرنسيون بأن بريطانيا سنورطهم فيما هو أكثر من المظاهرة العسكرية فصدرت الأوامر للأسطول الفرنسي بالتزام الهدوء وعدم مشاركة الأسطول البريطاني أي عدوان على المدينة..

وسيطر عرابي وأنصاره على القاهرة، وأعلنوا إسقاط نظام الخديوي توفيق وإقامة نظام وطني، وأعلن عرابي نفسه نائبا عن السلطان العثماني في مصر.

وصدرت الأوامر من عرابي لقادة حصون وقلاع ثغر الإسكندرية بتحصين مواقعهم تحسباً لعدوان بريطانيا محتمل.. وبينما هم ينفذون تلك الأوامر فوجئوا بأن البريطانيين قد احتجوا عند السلطان عبد الحميد على أعمال التحصينات تلك فأصدر السلطان والخليفة أمير المؤمنين عبد الحميد الثاني فرماناً يأمر عرابي بوقف تحصين الإسكندرية!

بالطبع رفض عرابي هذا الأمر، واستمرت أعمال التحصين والترميم والاستعداد للهجوم البريطاني المرتقب، فبادر سيمور قائد الأسطول البريطاني وأمر بقصف المدينة التي لم تصمد تحصيناتها أمام القصف الوحشي رغم استنسال الجنود المدافع عنها وأهلها، وتحولت

عن وس البحر المتوسط إلى أنقاض مذكوكمة مشنعلتة . . وانسحب عن ابي والجيش المصري إلى
كفر الدوار (في محافظة البحيرة الملاصقة للإسكندرية في دلنا مص) اسنعداآا للنصدي للغزاة
الذين قاموا بإنزال في الإسكندرية واسنعدوا للتقدم من القاهرة . .

وبينما كان العثمانيون يسنعدون لفصل أخير من الخيانة، كان المصريون يضربون مثلاً رائعاً
في النكاقة لصد العدوان . . على اختلاف عقائدهم

فباقوم بك قائد شرطة القاهرة اسنطاع أن تحفظ الأمن فيها خلال هذه الظروف الدقيقة
بشكل اسنحق إعجاب الجميع . . وأثر بآاء يهود الصعيد راحوا يرسلون الهبات المالية لعرايبي
لنسلح الجيش . . وأعيان المسيحيين أرسلوا الخيل والغلال لتموين الجيش المصري.

ونافس التجار المسلمون شركاهم في الوطن في تقديم الدعم فأرسل تجار دمنهور 500
حصان لعرايبي وسراح أهالي مدن الدلنا تحصنون مدتهم وقراهم، وخرج 35000 من الأطفال
والنساء لتحصين القاهرة . . وبعث حاكم أسبوط 22000 جندي من قدامى المقاتلين.

ونساء الأسرة العلوية الحاكمة لم ينحزن لتوفيق الخائن بل سارعن فجمعن أخوات وأمهات
المجاهدين للدفاع عن مص وعملن جميعاً في إدارة الأعمال الخدمية للجيش من كساء وتموين
ودعم . .

وبعثت أرملة سعيد باشا -والي مص الأسبق وابن محمد علي باشا نخيمة زوجها الملكية
إلى عن ابي لتكون خيمة ميدانية لإدارة العمليات العسكرية . .

وأرسل المغاربة مقاتلون من قبيلة بني سليمان، وبعث السنوسيون في ليبيا بمقاتلين من بدو طرابلس ثم كروا في كس الدوارة..

ملحمة رائعة، ولكن.. جاءت الطعنة العثمانية من الظهر.. فقد أصدر السلطان العثماني فرماناً ينهر فيه عن أبي بالخيانة وأنه قد خرج عن الطاعة! وهلك الخديوي توفيق الخائن والغزاة الإنجليز هذه الحماقة والخيانة العثمانية..

-نتيجة الخيانة:

وعند كس الدوارة دارت معركة ضارية بين الجيشين المصري والإنجليزي، تكبد فيها الإنجليز خسائر فادحة ومنوا لهزيمة موجعة..

كان يمكن أن يكون هذا الانتصار المصري خطوة للتقدم وطرده الإنجليز من الإسكندرية، ولكن الخديوي الخائن توفيق لوح لقادة الجيش المصري بفرمان السلطان العثماني وحذرهم من مغبة العصيان وأمرهم بالخلي عن عن أبي "العاصي".
ولأن كثير من هؤلاء القادة كانوا متأثرين عاطفياً بفكرة "طاعة الخليفة ولي الأمر" فقد أثر ذلك في ثباتهم، وأسهم - إضافة لضعف تسليح الجيش المصري ومقارنته بالجيش الإنجليزي والخيانة بعض البدو وبعض الضباط المرتشين لرفاههم في هزيمة عن أبي ورفاقه عند "الثالكبير".
وساح الإنجليز يتقدمون من القاهرة من جهة الدلتا إضافة لتقدم قوات دعمهم من جهة قناة السويس التي فتحها لهم فرديناند ديليسبس رغم تعهده السابق لعربي بإغلاقها في وجه

ملاحظتهم . تلك القناة التي باقت مفنوحة من البداية للإنجليز بفعل تسليمهم قبرص المطلية عليها من السلطان عبد الحميد الثاني.

ولكي يتجنب القاهرة مصير الإسكندرية نفسه، اضطر عرابي للإسسلام للإنجليز، ليخضع ورفاقه للمحاكمة ثم النفي . . وليبدأ الاحتلال البريطاني لمصر والذي استمر نحو 74 عاماً. يبرر العثمانيون الجدد موقف عبد الحميد الثاني من عرابي بأن السلطان قد تعرض للخداع من الاحتلال وعمالته فأبلغوه أن عرابي يسعى لفصل مصر عن الدولة العثمانية. وهو مبرر وإيهام . . فضلاً عن أنه يفضح ثقافت المغردين بمدح عبد الحميد هذا، فهل هو الخليفة الصلب المتمكن كما يقولون أم هو ذلك الغافل الساخج الذي يقع في فخ خدعة ساذجة كهذه.

الواقع التاريخي وتحليل الوقائع يقول إن عبد الحميد الثاني قد خشي من ارتفاع موجة "الوطنية" في مصر إلى حد أن تنفصل عن دولته، ففضل أن يقوم الإنجليز بإخماد هذه الموجة وهو يتحسب - مقامراً - أنه سينمك بعد ذلك من إقناعهم بالانسحاب منها . . أي أنه قد انطبق عليه التعبير الدارج "مأثم وغبي!"

في كل الأحوال فإنه لو لم تكن لعبد الحميد الثاني من مثالب سوى تسليمه قبرص، ودعوته الإنجليز للتدخل العسكري في مصر، وأمره بإيقاف تحصين الإسكندرية ثم فرمانه بحق عرابي، لكان هذا كافياً لوصمه إلى الأبد بالخيانة العظمى . . ووصره من محاولة باسئامته تجميله بأهم بين غافل منعمي أو مدلس مزور للواقع التاريخي!